حـــكايتـان عـربيتـان من حكايات اللصوص في الأدب الإسباني في القرن السادس عشر

Dos Cuentos Arabes de ladrones
en la literature española del
Siglo XVI -
Al-Andalus
Vol : XXXIII 1968
Fasc . 2

حكايتان عربيتان من حكايات اللصوص
في الأدب الإسباني في القرن السادس عشر

في القسم الأول من العدد الماضي من مجلة الأندلس نشرت مقالا ألمحت فيه إلى أصل عربي لثلاث حكايات في الأدب الإسباني ، في القرن السادس عشر ، أولاها حكاية التينات الثلاث الموجودة في كتاب الملح لمؤلفه لويس دي بينيدو ، وفي الأيكة الإسبانية لميتشور دي سانتاكروث ، وفي حديث المائدة لخوان دي تيمونيدا ، كما ظهر صدى الحكاية الأخيرة في مجمع الأمثال لجونثالوكورياس ، وظهر مرة أخرى في القرن التاسع عشر في كتاب حياة بدرو سابوتو للكاتب الأرغوني براوليو فوث ، والحكاية لدى أبي بكر محمد بن عاصم الوزير القاضي الغرناطي المتوفى في سنة 1425 ، في كتابه حدائق الأزاهر والأمثال والحكايات والنوادر . والحكاية الثانية الخطيب البكيء اللسان ، والتي لم أعثر لها على رواية إسبانية أخرى ، وهي كذلك في كتاب الملح لبينيدو ، وتحكي عن شاعر مشرقي من القرن التاسع في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه من شعراء عبد الرحمن الثالث ، وبلا ريب هذه الحكاية انتقلت من العقد إلى حدائق الأزاهر ، وحظيت فيما بعد بتطور كبير في الأدب العربي الشعبي ، أما الثالثة ، فهي حكاية الجندي الأحمق التي جمعها المصنفون بأمر من خوان دي أرجيخو ، وهي في أيكة سانتاكروث ، وتبدو مرة أخرى بصورة جديدة في أيكة فرانسسكو أسنسيو في القرن الثامن عشر ، وتوجد كذلك لدى كاتبين إسبانيين : الشريشي المتوفى سنة 1222 في شرحه لمقامات الحريري ، وبصورة موجزة فيما بعد لدى ابن عاصم .

الحكايات الثلاث شديدات الوجازة ، وخليق أن تطلق عليها نادرة أكثر مما يطلق عليها حكاية ، وهي أكثر وجازة في نظائرها الإسبانية ، حيث اختفت بعض الحواشي ، وبقيت فحسب هيكلا محضا في ثوب ملائم للفترة ، مع تغيير مهن الشخصيات ، وفي بعض الأحيان تُعَمّد بأسماء قشتالية بصورة مباشرة ، وفي الوسع أن تبدو – في جملتها – قشتالية تماما داخل إسبانيا في القرن السادس عشر . ولدى عدم الوقوع على أي شاهد لأصل أية حكاية في الأدب الإغريقي واللاتيني ، أو الإيطالي . فلم يشك أحد في أنها إسبانية خالصة ، وهو أمر صحيح في الواقع ، بالنسبة للحكايات الثلاث : حكايات إسبانية مما وراء الحدود .

حاولت في هذه الصفحات أن أكون محترسا إلى أبعد حد ، ولا تدفعني الحماسة التي تتوقع (يدرك هذا فقط أهل الحرفة) اكتشافات من هذا الطراز ، فقط في الفترة الأخيرة أدليت بالفكرة ، وبشيء من الحذر ، وهي أن الحكايات العربية الثلاث من الممكن أن يكون قد ترجمها أحد الموريسكيين ، وولجت بذلك الأدب الإسباني ، وبطريقة شفوية احتمالا ؛ إنها النكات التقليدية التي يمكن لأي شخص – ولا نقول شخصا مسلما تمرن على الحفظ منذ طفولته – أن يقولها في جماعة ، وعلى الأقل هي موجودة بين الشعب منذ قديم ، ودون أي شك في أصلها العربي .

أنهيت المقال مؤكدا أن هذه الحكايات العربية الثلاث دخلت الأدب الإسباني في القرن السادس عشر ، وليست الحكايات هذه وحدها هي التي دخلت ، وأعد أن أدلي بشواهد جديدة من هذا الطراز .

حكايتا اللصوص اللتان أدرسهما في هذه الصفحات يمكن أن تتسربا من اليد ، ليس فقط بواسطة مهنة الشخصيات ، بل لأن كلتيهما يظهران في الكتابين اللذين صنفهما كاتبان إسبانيان في القرن السادس عشر ، كما نرى فيما يلي :

أثناء مطالعتي للكتاب المهم «المنتخبات» لدون لويس ثاباتا قيدت بعض الروايات التي قد قرأتها بالتأكيد منذ زمن في اللغة العربية . الأولى كما نرى ليست رواية بالمعنى الدقيق ، بل هي حكاية تقول ما يلي :

غدا يبكون :

بينما يتعسس حاكم بالليل ، عثر على لصوص يحملون صناديق ، فنادى : اقبضوا عليهم ، اقبضوا عليهم ، وسوقوهم إلى العدالة ، فامتثل عشرون حارسا بأمر الحاكم، فقال له اللصوص : أيها السيد : مات صاحب هذه الدار ، ونحن ننقل هذه الصناديق إلى دار أخرى ، فقال لهم : كيف لا يبكون إذن ؟ فأجابه اللصوص : أيها السيد ؛ غدا يبكون ، لأنه لم يحن بعد وقت البكاء «وفي يوم آخر مر الحاكم بتلك الناحية ، فسمع صياحا يملأ الشارع كله ، فعلم أن اللصوص في تلك الليلة قد سرقوا الدار» .

عسير أن تعثر على إبرة في التبن ، ومع ذلك أنشأت أبحث ، تصفحت بعض مجلدات الحكايات العربية ، شرعت فيما هو في متناول يدي منها ، دون أن أصيب حظا ، أيكون ما قرأته – في نهاية المطاف – حكاية إسبانية ، ربما تكون معروفة في الأدب الإغريقي أو اللاتيني ؟ لم يقل ناشر المنتخبات دون باسكوال جاينجوس شيئا لا في المقدمة ولا في حاشية حول هذه الحكاية ، برغم أنه مستشرق . والحق أن هذه الطبعة بها هوامش كثيرة ، لم أجد مناصا من الرجوع إلى «أصول القصة» لميننديث بيلايو : «لتفصيل كل الهوامش التي أضافها ثاباتا إلى القصة ، يقتضي الأمر مجلدا ليس أقل من المنتخبات ؛ لأنه لا يكاد يوجد فصل ليس فيه حكايات متعددة ليست مخترعة على هواه ، بل مرتكزة على أشياء واقعية شاهدها المؤلف أو وصلت إليه عبر رواة ثقات ، غير أن هذا لا يعني أنها في أحيان كثيرة كانت بعيدة عن التصديق أو غير ممكنة ، وبلا ريب فإن الحسن لدى دون لويس أنه كان مفرطا في سرعة تصديقه في رواياته» .

لقد وضعت خطا تحت جملة تبدو لي ذات دلالة . وبالتحديد تستطيع أن تعين الحكاية التي نعالجها ، ولماذا تكون بعيدة عن التصديق وغير ممكنة . ويضيف – على صواب كبير – وإن كان لا يأتي بمثال : «إذن هي حكايات حقيقية كثيرة ذات أشياء عجيبة يرويها ، ويقع كتابه في هذه الناحية في دائرة القصة الأولية غير الواعية» وليس هذا أيضًا شأن الحكاية التي ندرسها ولا التي تليها .

بعد قليل ، وفي مكتبة تبيع الكتب القديمة والرخيصة رأيت طبعة «المنتخبات» التي نشرها إيسدورو مونتييل في سنة 1949 ، وأظن أنها نفدت ، اشتريتها ، وعاودت قراءة الفصل المطول بعنوان : «أمثال» حيث نرى حكايتنا هذه والحكاية التي ندرسها فيما بعد ، تحتوي تلك الطبعة على مقدمة جيدة ، ومجلد من الهوامش ليس أقل من المنتخبات نفسها كما تصور دون مارثيلينو ، وكان عليه أن يعرف هذا ، لم أعثر على أية إشارة ، وهذا ما دفعني إلى أن أفكر في أن الحكاية معروفة في الأدب الكلاسيكي أو الأدب الأوربي ، ويمكن أن تكون جاءت ملحقة .

قارئا من جديد «الأيكة» لسانتاكروث عثرت على الحكاية ذاتها ، وتقول ما يلي :

خطر حاكم كبير في أحد الشوارع ، فرأى رجالا يخرجون صناديق وأشياء أخرى من أحد المنازل ، سألهم : إلى أين تحملون هذه الثياب؟ أجابوه : يا سيدي . لقد مات شخص في هذا المنزل ، ونحن نحمل هذه الصناديق إلى منزل آخر . فقال لهم الحاكم الكبير : كيف لا يبكون إذن ؟ أجابه أحدهم : يا سيدي ، في غد يبكون ، ثم عاد في يوم آخر إلى تلك الناحية فوجد نسوة يبكين في تلك الدار ، شاكيات من أنهن قد سرقن» .

هدأ خاطري ؛ إذ أنني عانيت – كما هو بين – من عبث الذاكرة ، فحكاية ثاباتا التي اعتقدت أنني قرأتها في العربية هي ببساطة حكاية إسبانية أخرى قرأتها منذ أشهر قلائل فقط . بدا لي الأمر طبيعيا ؛ إذ أنني أخيرا قرأت حكايات كثيرة عربية

وقشتالية ، ولا يعدو الأمر إلا أن حكاية صغيرة ذات قيمة محدودة في الأدب العربي، ضلت في فهرس ذاكرتي .

وعلى كل حال ، فإن دون مارثيلينو مينندث بيلايو عند حديثه عن ثاباتا الذي خصص له صفحات متعددة في كتابه «أصول القصة» . لم يستند إلى سانتاكروث دي دوينياس ، ولا عند دراسته «الأيكة» التي خصص لها صفحات طوالا ، وكذلك لم يشر إلى إحدى حكاياته التي وردت في «المنتخبات» (وهو ما حدث أيضًا كما نرى في حكاية أخرى عن اللصوص) . استعدت الثقة بنفسي قليلا ، وفهمت مدى الصعوبة – في هذا النوع الأدبي ، ومعالجة حكايات موجزة جدا ، ومتشابهة في مضمونها ، وهي بالمئات في أدبنا – مدى الصعوبة في الوقوف على علاقة بعضها بالبعض الآخر .

استغل ثاباتا الذي كتب المنتخبات ما بين 1591 ، 1594 ، 1595 (تاريخ غير محدد لوفاته) حكاية من الأيكة الإسبانية لسانتاكروث التي بلغت في هذه التواريخ على الأقل الطبعات التالية حسب فهرس شيندر Schneider الذي ذكره مينندث بلايو : طليطله 1574 ، شلمنقه 1576 ، بلنسيه 1580 .

يتعلق الأمر إذن بروايتين مختلفتين جدا للحكاية ذاتها ، وليس بالنقل الحرفي للحكاية نفسها ، الذي ينتقل من كتاب إلى كتاب آخرين خلال تلك الحقبة . ويمكن اعتبار الأمر في النهاية أن حكاية شعبية أخذها واحد من آخر وحررها بأسلوبه الخاص . حررتُ ملاحظة في مذكرة صغيرة ، ووضعت عنوانا للجملة المتشابهة في كلتيهما «في غد يبكون» . لم أكد أصنع هذا حتى جرى هاجس بنفسي ، يتمثل في أن هذه الكلمات لها إيقاع المثل إلى درجة أنني تذكرته . وفي الواقع فإن جونثالو كورياس هذا الرجل المدقق ، والذي أملك نسخة من كتابه طالعتها أكثر من مرة ، تضم هذا المثل كما هو في كتابه العظيم «القاموس» بهذه الصورة الآتية :

كان بعض اللصوص يخرجون في وقت متأخر ثيابا ، وشوار منزل ، وصلت دورية الحرس ، وسألتهم : من أنتم ؟ أجابوهم : لقد مات هنا أحد السكان ، ونحن ننقل متاع الأرملة إلى منزل آخر ، قال لهم الحرس : كيف لا يبكون إذن ؟ أجابوهم: في غد يبكون .

هذا المحتوى الوجيز للحكاية ذاتها ، والذي جمعه الأستاذ كورياس في الربع الأول من القرن السابع عشر يقترب أكثر لما يمكن أن تكون عليه الحكاية العربية ، وهذا ما دفعني إلى متابعة التفكير في المسألة ، ومزاولة البحث .

مطالعا حدائق الأزاهر لابي عاصم ، في المخطوط المنسوب إلى جانيجوس وهو الناشر الأول لمنتخبات لويس ثاباتا ، عثرت على الحكاية العربية – في النهاية التي كنت أبحث عنها ، وهذا نصها :

وخطر حاكم بالليل ، وهو يطوف بالمدينة على سارق ينقب دارا ، فقال له : ما هذا ؟ قال له : مات لنا ميت ، وأنا أحفر له من أين يخرج ، فقال له الحاكم : وأين أمارة الموت البكاء والصراخ ؟ قال : آخر الليل تسمع النياح .

بلا ريب هذه الحكاية هي الأصل – ومن يدري إذا كانت أصلا مباشرا – للحكاية الإسبانية التي قدمت رواياتها فيما سبق ، وأعتقد أنني قرأتها لمؤلف عربي آخر ، لكن لم أستطع الوقوع عليه .

على أن أكتفي إذن بالإشارة فقط إلى هذه الرواية التي أكرر أنها لدى كاتب غرناطي توفي في سنة 1425 .

ثمة حكاية مشابهة جدا ، ومشوهة لهذه منسوبة إلى جحا في السلسلة التركية ، تحكي نوادره ، تقول ما يلي :

كان ذات ليلة راكبا مع تلميذه عائدين إلى داره ، فرأيا لصوصا يلعبون بقفل الباب ، فخشى إذا عارضهم أن يقع في هلكة ، فلم ينبس ببنت شفة ، بل انسحب

جانبا وكانوا قد تألبوا على الباب يعالجونه ، فسأل حماد شيخه قائلا : ماذا يصنع هؤلاء ؟ فقال له : يضربون على الرباب ، فقال حماد : لماذا لا يخرج صوتها؟ ، فقال : غدا يخرج صوتها .

إلى أين ننتقل ؟

حكاية اللصوص الأولى ، في منتخبات ثاباتا ، ما يلي :

أطل بيخرانو من شرفة منزله ، فرأى بعض اللصوص يخرجون صندوقا ، فصاح بأعلى صوته : إيه يا هؤلاء : إلى أين ننتقل ؟ حين سمعوا صياحه ، تركوا الصندوق، وهربوا .

هذه الحكاية التي يقصها ثاباتا كما حدثت ، إلى درجة ذكره اسم الشخصية التي تحدث عنها ، هي في الواقع قد ذكرها من قبل عند حديثه عن رواية أخرى ، وسماها «بيخرانو» وهو أحد الكتبة المعروفين باللوذعية في أشبيلية ، هذه الشخصية مذكورة أيضًا في الأيكة الإسبانية لسانتاكروث لكن باسم بدرو ألْنجرو ، وكما يمكن أن يظن فإن ثاباتا استخدم كلتا الشخصيتين في كتابه . وها هي حكاية سانتاكروث :

سرق مجموعة من اللصوص في طليطلة رجلا يسمى بدرو ألنجرو ، سرقوا منه صندوقا ، وحشيتين ، حين عودته من الخارج رآهم ، فمضى وراءهم ، سألوه حين رأوه يقتفي أثرهم : ماذا يريد ؟ أجابهم : ذاهب لأرى إلى أين تحملونني .

جمع هذه الحكاية رينيه باسيه في كتابه ألف حكاية وحكاية تحت عنوان : «انتقال غير متوقع»

وسهل ملاحظة علاقتها بهذه ، وإن كان واضحا أن الحكاية ليست هي ذاتها ، بل هي رواية موسعة ، تقول ما يلي :

ذات ليلة دخل لص منزل جحا ، وحمل جزءا من الأثاث ، فحمل جحا باقي الأثاث وتبعه ، فالتفت اللص ، فرأى جحا آتيا وراءه ، قال له اللص : ماذا تريد أيها

الرجل ؟ رد جحا : نحن ننتقل من منزلنا إلى منزلك ، وأنت حملت بعض الأثـاث ، وأنا أحمل البعض الباقي ، وغدا مع مطلع الصباح تصل الزوجـات والأولاد ، كـم سيسعدون لتركهم منزلا خربا . فدهش اللص وقال له : خذ أمتعتك ، ودعني .

صورة مغايرة للحكاية ، إنها أقرب إلى الحكاية الإسبانية ، وهي في نـوادر جحـا الكبرى كما يلي :

دخل لص منزل جحا ، وحمل بعض أثاثه ، فحمل هو بقية الأثاث حتـى دخـل وراء اللص إلى داره ، ونظر اللص وراءه فرآه يدخل الدار فسأله : من أنت يا هـذا ؟ قال : أنا صاحب هذه الدار التي نقلتنا إليها .

صادفت هذه الحكاية تطورا شعبيا كما حدث تقريبا لكل نـوادر جحـا العـسيرة التأريخ ، ولها طبعات تركية وفارسية وبربرية ، وكـذلك طبعـة توسـكانية شـعبية ، يؤكد باسيه الذي استقى منه هذه المعلومات : أن أقدم شكل لهذه النادرة موجود في كتاب ألفه بالسريانية بار هبراوس . الأسقف السوري المعروف ، وابن أحد اليهـود المرتدين ، العارف بالعربية واستخدم بصورة خاصة اللغة السريانية في تحريـر مصنفاته ذات الموضوعات المتباينة . وعـاش مـا بـين سـنة 1226 – 1286 ، لم أستطع للأسف العثور على الترجمة الإنجليزية الموجودة في قصص ضـاحكة : The Laughable Stories والتي نشرها Sir . E . A . Wallis Budge

ومع ذلك كان لي حظ الوقوع على رواية عربية قديمة جدا ، أخذها مـن العربيـة بلا ريب Bar Hebraeus ، ضمن أحد مؤلفات أبي إسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني ، هذا الأديب القيرواني المعروف أستاذ عالمين جليلين : ابن رشيق ، وابـن شرف ، والمعروف أكثر بكتابه زهر الآداب ، والمتوفى سنة 1022 ، أي قبل أكثـر مـن قرنين من مولد Bar Hebraeus . وفي مؤلف آخـر لـه هـو جمـع الجـواهر نـشر أولا بعنوان ذيل زهر الآداب نجد حكايتنا هذه التي تقول ما يلي :

ودخل على أبي سعيد اللصوص فأخذوا كل ما في داره ، فلما مضوا حمل أبو سعيد البارية ومضى في إثرهم ، فنظر إليه أحدهم فقال : أي شيء تصنع معنا ؟ ، قال : نطلب بيتا نتحول فيه بمرة ، فضحك اللصوص ، وردوا عليه ما أخذوه منه .

يحدثنا الحصري عن شخصية أبي سعيد في حكاية أخرى شبيهة بها في تفصيلاتها، حيث يذكر فضلا عن ذلك نسبته «الحربي» ، ولم أستطع تحقيق هذه الشخصية ، وهي بلا ريب أحد الأبطال الكثيرين في الحكايات والنوادر والقصص في الأدب العربي .

ليس ثمة ضرورة للمقارنة الدقيقة بين هذه الحكاية ، وبين حكايتي سانتاكروث، وثاباتا ، ثمة خلافات طفيفة في الموضوع نفسه ، بمشاهد جديدة ، طليطله ، وأشبيلية ، وشخصيات جديدة بدرو ألنجرو ، وبيخرانوا على التوالي ، ورواية الحصري أقرب إلى رواية أيكة سانتاكروث ، ففيها صاحب الدار كان غائبا ، ويفاجأ باللصوص في اللحظة الأخيرة حين خروجهم من الدار ، فيتبعهم ، وفي رواية ثاباتا يتحدث بطل الحكاية مع اللصوص من الشرفة ، لكن من الواضح أن الحكايتين قريب من قريب .

كيف ولجت هذه الحكاية إلى الأدب الإسباني ؟ عسير الوقوف على هذا في البداية . الحصري من القيروان ، مدينة ذات علاقة وثقى بالأندلس عبر تاريخها كله، وكتابه بلغ شهرة واسعة بين الأندلسيين ، وذاع ، واستخدمه الكتاب الإسبان في أعمال أدبية أخرى . ولا ننس أن ابن عمه ، ولعله ابن أخيه هو الشاعر الضرير أبو الحسن علي الحصري ، ولد كذلك في القيروان ، وترك المدينة عندما غزاها بنو هلال ، ذاهبا إلى إسبانيا بدعوة كريمة من المعتمد ملك أشبيليه ، واقتصر على مدحه، وظل يستوهبه العطايا حتى بعد عزل المعتمد ، ومر بطنجة في طريقه إلى المنفى .

حكاية مثل هذه شديدة الوجازة يمكن أن تدخل الأدب الاسباني ، من العربية عن طريق الترجمة الشفوية في أي وقت ، ليس ثمة – فيما أعلم ، حكايات سابقة لهذه – هذا الوقت يمكن أن يكون متأخرا جدا ، في وقت لاحق لغروب شمس غرناطة، الحصن الأخير للإسلام الإسباني .

وينبغي ألا نغض الطرف عن الموريسكيين ، وألا ننسى دورهم الملموس في نقل الثقافة العربية التي تموت إلى الثقافة الإسبانية ، وبالنظر إلى الوجازة الشديدة في هذه الحكايات ، فإن نقلها من لغة إلى أخرى سهل جدا ، ولنتذكر أن الموريسكيين بالتالى كانوا ينسون لغتهم الأصلية ، ويتعلمون الإسبانية لغة المنتصرين .

لدي كذلك مجموعة أخرى من الحكايات ، سأنشرها تباعا ، كلها ذات خصائص متشابهة ؛ وجازتها ، لغتها البسيطة ، خاتمتها المفاجئة التي تتحول بها إلى نوادر سهلة الفهم والقص ، وفي بعض الأحيان فإن الأصل العربي لطوله المفرط يوجز في الرواية الإسبانية ، وسنعود إلى الموضوع .